مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة السادسة عشرة

عنوان المحاضرة: (النثر في الأدب الإسلامي / الخطابة- الرسائل النثرية)

أولاً- مدخل الى النثر الإسلامي:

النثر الفني هو الكلام الذي ليس فيه الوزن الشعري ولكن قد نجد فيه صفات جمالية موظفة فيه مثل الطباق والسجع وغيرهما، وهو يعتمد على الحقائق والإقناع العقلي الموضوعي أكثر من اعتماده على العاطفة والجانب الذاتي الشخصي. وهو يشمل الخطب والرسائل والوصايا والقصص والكتابات الفنية الأخرى التي يمكن وصفها بالنثر الفني لمغايرتها للغة التخاطب اليومي التي لا تعد أدبا فنيا.

لقد كان للعرب في عصر ما قبل الإسلام نثر يقال في مواقف معينة، واقتصرت موضوعاته على الكهانة وسجعها ورموزها التي يقصدها الكهان قصداً ليدخلوا الرهبة في نفوس من يلجأ إليهم.

وقد وقف الباحثون المحدثون من نشأة النثر الفني عند العرب مواقف مختلفة. فذهب الدكتور طه حسين إلى إنكار معرفة العرب لهذا الفن بحجة أن النثر وليد العقل والتأمل والعرب آنذاك أمة شعر لم يكن للعقل مكان في حياتها وإنما جل اعتمادها على ما يثير انفعالاتها وعواطفها وهو الشعر. ويرى أن العرب لم يعرفوا النثر إلا بعد اطلاعهم على الأدب اليوناني.

وللرد على رأيه فإن القرآن الكريم هو معجزة الرسول – صلى الله عليه وسلم- إنما أنزله الله تعالى بأسلوب النثر، واعجاب العرب به دليل على معرفتهم بالنثر، وبلوغهم مبلغا كبيرا. **ويرد** طه حسين على هذا الرد بأن القرآن ليس نثرا ولا هو شعر إنما هو قرآن وحسب.

أما الدكتور زكي مبارك فإنه يرى بإن العرب ما كانت بحاجة الى أن تنتظر هذه المدة الطويلة لتطلع على الأدب اليوناني لتعرف النثر إنما هي أمة نثر كما هي أمة شعر، وإن وجود القرآن الكريم هو أكبر دليل على معرفة العرب بأسلوب النثر، وسفه

رأي طه حسين في حديثه عن النثر العربي، وقرن دليله هذا بكثرة الخطب وعلو شأنها بعد ظهور الإسلام بدءا بالرسول الكريم والصحابة والخلفاء الراشدين، وإنه لا يمكن أن يوجد هؤلاء الخطباء مرة واحدة الى الوجود دون أن تسبقهم تجارب نثرية.
وقد ازدهر النثر في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي عموما، لا سيما بعد تأثره باسلوب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومعانيهما السامية. وارتبطت موضوعاته بأمور الحياة العامة التي تغيرت كثيرا بظهور الإسلام وانتشاره في أصقاع الأرض.
فظهرت الموضوعات السياسية والدينية والإجتماعية والحربية المتعلقة بالجهاد في سبيل الله، وما يتعلق بالقبائل والوفود والمناسبات العامة. وتطور النثر في العصر الأموي بظهور الخصومات والأحزاب السياسية وتوسع الدولة بفعل الفتوحات الإسلامية.

ثانياً- الخطابة:

وتعرف الخطابة بأنها: من أهمّ الفنون الادبيّة الّتي تهدف الى إيصال خبرٍ أوفكرةٍ ما لجماعة من المستمعين على نحو مؤثر ومقنع.
ولقد تطورت الخطابة تطوّرًا كبيرًا وعلا شأنها؛ لاعتماد الدعوة الإسلامية عليها في نشر قيمها، والدفاع عن مبادئها ومحاربة أعدائها، وقد جعل الإسلام الخطابة ضمن الشعائر التعبّدية، فقام بفرض الخطبة في يوم الجمعة، وأصبحت الصلاة لا تصحّ إلّا بها، بالإضافة إلى الخطب المفروضة في الحج وفي صلاة الاستسقاء أيضًا والخسوف والكسوف، إلى جانب خطب الزواج والجهاد، وقد ارتقت الخطابة في ظلّ الدعوة الإسلاميّة جوهرًا ومضمونًا؛ وذلك لانّ استمدادها كان من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة.
وفي صدر الإسلام كان الرسول- صلى الله عليه وسلم- أخطب العرب قاطبة، وأشهر خطبه تلك التي خطبها في حجة الوداع . وبالمثل كان الخلفاء الراشدون خطباء مفوهين، وعلى رأسهم الإمام علي بن أبي طالب- رضي الله عنه . فضلا عن اشتهار عدد كبير من الصحابة بالخطابة.

وفي العصر الأموي ازدهرت الخطابة وبلغت ذروتها، وتنوعت أغراضها بين السياسي والديني والعقلي. وكان للأحزاب السياسية دور كبير في نهضة الخطابة، إذ كانت سلاحًا من أسلحتهم في الدعوة لأحزابهم ومبادئها. وبسبب تعدد الفرق الإسلامية فيما بعد ، كانت الخطابة أداة الدعاية ومصارعة الخصوم، فاشتهر عدد من الخطباء حُفظت خطبهم وظلَّت تُتداول وتحفظ في مدونات الأدب والتاريخ .

ويمكن تلخيص خصائص الخطابة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي بما يأتي:

١- البدء بالبسملة وحمد الله والصّلاة على رسول الله، ثمّ كلمة(أمّا بعد)، ثمّ انتقال الخطيب إلى الموضوع. الرئيس من الخطبة، وإنهاء خطبته بالسلام، ونادراً ما نجد خطبةً تخلو من هذه البداية، حيث إن الخطبة التي تخلو من هذه البداية تُسمّى **البتراء .**

٢- لا تخلو أي خطبة من الخطب من آيات القرآن الكريم، ويكثر افتتاحها بحمد الله والثناء عليه.

٣- ورد السجع والصنعة في الخطابة الإسلامية بشكل انسيابي وغير متكلف أو ثقيل، مثل الطباق الذي ورد في معظم الخطب بشكل غير مباشر،من خلال اللجوء إلى العبارات القصيرة في عرض أفكارهم.

٤- إيثار الإيجاز في العبارة، وتجنّب التكلف، بالإضافة إلى الزهد في الزخرف اللفظي.

٥- وضوح المعاني وتوخّي الجزالة، والرصانة في الأسلوب. وسهولة التعبير عن القصد من غير تعقيد.

٦- استخدام أسلوب الإقناع بالدليل والحجّة الواضحة، بالإضافة إلى الموعظة الحسنة.

أما أنواع الخطابة فتتمثل بما يأتي:

أ-خطب البيعة والخلافة والولاية:

وتتمثل بالخطب التي ألقيت بعد وفاة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في سقيفة بني ساعدة ، فكل خطيب وقف يعبر عن ترشيح جماعته لصاحبها لتولي خلافة رسول الله- صلى الله عليه وسلم - ثم أصبح هذا النوع من الخطب عادة وسنة

تجرى في مراسيم الخلافة ، فما أن يتولى الخليفة الأمر بعد إعلان بيعته حتى يخطب ليعلن عن منهجه في معاملة الرعيه وخدمتها ومعاهدة الناس على الحكم العادل بينهم، واتباع منهج القران والسنة النبوية الشريفة في عبارات قصيرة معبرة بإيجاز عن الروح الإسلاميه وتعاليم الدين الإسلامي. أما خطب الإمام علي – رضي الله عنه– فقد تفردت عمّا سبقها وامتازت بسمات عدة أهمها طول الخطب وبلاغتها وفصاحتها وغزارة معانيها.

وقد استمرت خطب البيعة في العصر الأموي حتى أصبحت من مراسم تولي الخلافة ، وعلى الرغم من متابعة الخطباء لسابقيهم إلا أن خطبهم اتخذت طابعا آخر يختلف عما

سبق لإختلاف ظروف البيعة عند بني أميه بعد أن أصبح الحكم وراثيا.

ب- الخطب الوعظية والوصايا:

تندرج كثير من خطب الرسول– صلى الله عليه وسلم– وصحابته ضمن الخطب الوعظية ولاسيما ما كان منها في وعظ الناس، وتذكيرهم بالدنيا الفانية والآخرة الباقية. وقد كانت خطب الإمام علي– رضي الله عنه– قيلت في مواقف وعظية عدة، وفي الظروف السياسيه التي مرت بها الدولة الاسلاميه ، فكانت بحاجة لتذكيرهم بواجباتهم وتخويف الناس شرّ الفتنة، وتذكيرهم بالأجر والثواب الآخروي بإسلوب بليغ مقنع ومؤثر.

وكذلك كان في خطب أغلب الأمويين معان إسلامية تندرج ضمن إطار الوعظ ، وتميز الخليفة عمر بن عبد العزيز بوعظه إذ كان تقيا ورعا زاهدا قامت أغلب خطبه على الموعظة. ولاتقتصر الخطب الوعظية على من تولى الحكم من بني أمية بل هناك خطب دارت على ألسن كثير من الرجال ممن جندوا أنفسهم لخدمة الدين ومنهم الحسن البصري الذي تاثر بآيات القرآن الكريم وذكّر بمواعظه.

.

اما الوصايا: فهي خطب بميدان محدد لأن الخطيب يوصي مخاطبيه بجملة من الوصايا والمبادىء يطلب منهم الإلتزام بها . لذا فقد اختلفت معانيها، فمنها: وصايا

الحرب التي يحذر فيها الخطيب المسلمين ويذكرهم ، ومنها وصايا الآباء والأمهات للأبناء. أما الخلفاء فقد اختلفت وصاياهم باختلاف شخصياتهم فكان للخطابة مجال واسع تنشط فيه وهو الوعظ وتذكير الأمة.

ج- الخطب السياسية:

ويتّضح فيها مواكبة الأحداث السياسية، وتُلقى هذه الخطب حتى لا يبقى الناس في فتنة أو فوضى، ويحتاج هذا النوع من الخطابة إلى إقناع مباشر وقدرة على التأثير في المخاطبين، وتكون الخطب السياسية ممتزجة بالدين وإن اختلفت نبراتهم باختلاف ظروف الحروب والثورات. وفيها تتضح مواكبة الخطابة للأحداث السياسية ولاسيما في العصر الأموي وما فيه من أحداث أبرزها تغيير نظام الحكم وجعله وراثيا بعد أن أوعز معاوية للخطباء باقتراح تسمية الخليفة من بعده ؛ كي لا يبقى الناس من بعده في فتنه أو فوضى وأخذ البيعة ليزيد.

د- خطب الوفود:

وتبرز هذه الخطب عند وفود القبائل على الرسول- صلى الله عليه وسلم- وانتدابه لمن يخطب أمام رجال الوفد مبينا مبادىء الدعوة الإسلامية، والرد على فخر رئيس الوفد في حالة عدم إسلامه قبل إعلان الوفد الإسلام. فان رأى منهم مفاخرة جاهلية فاخرهم ولكن بمعاني منسجمة مع الدعوة الإسلامية ، فكانت الخطابة وسيلة لإخراج الناس من التصور القبلي الى الدعوة الإسلامية. أما ما ورد من خطب الوفود بعد ذلك فكان لبيان حال الوفد للخليفة وطلب العون من بيت المال وما يرد من خطب عروض الوفود المتفاوضة في الفتوح الإسلامية. وكان للخطابة دور كبير في مهمات الوفود أفرادا وجماعات ، فقد ينوب فرد ليخطب عند الخليفة أو الوالي مبديا وجهة نظر الجماعة ، وقد يتحدث الجميع تباعا، وقد بدأت عادة تقدم الوفود للتعزية بعد وفاة معاوية ولتهنئة الخليفة الجديد. وقد اختلفت المعاني والأفكار التي ذكرها خطباء الوفود بحسب الغرض الذي وفدوا من أجله فكل منها خطب داعية للدين الإسلامي وأخرى للتهنئة وأخرى للتعزية أو لبيان موقف سياسي أو للمطالبة بالعطاء.

هـ- خطب الحوادث:

كانت أهم الأحداث التي هزت الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول- صلى الله عليه وسلم- أحداث المرتدين وفتنتهم فإن طبيعة هذه الأحداث تقتضي قيام خطباء من الفريقين: خطباء من المسلمين وقادتهم يحثون الجيش على الجهاد في سبيل الله، وخطباء من المرتدين يسوغون لقومهم سبب خروجهم على الدولة الإسلامية محاولين إقناعهم بصحة موقفهم. وقد وردت هذه الخطب متفرقة مبثوثة في كتب التاريخ والأدب.